حفريات افاميّة *

بقلم فرنان ميّانس
الاستاذ في جامعة لوفَن ، ومدير حفريّات افامية

كان « المشرق » قد اطلع قرّاءه ، منذ السنة الاولى لحفريات افامية ، على تاريخ تلك المدينة ، وكيف لفتت اطلالها انظار العلماء ، فتألفت البعثة البلجيكية التي يرئسها الاستاذ ميّانس ؛ وذكر ما كان من نتائج الحفريات في السنوات الثلاث ١٩٣٠ ، و١٩٣١ ، و١٩٣٢ (١ . وهـا ان مدير الحفريات نفسه يحدثنا اليوم عن حفريات السنتين ١٩٣٤ ، و١٩٣٥ ، ملقياً نظرة اجمالية على موقع المدينة ، وتقلبات صروف الدهر عليها منذ ظهرت معالمه في تلك الاكتشافات . وهذا ملخص حديثه :

لا نطيل في ذكر تأسيس هذه البعثة ، وما كان في ذلك من فضل للاستاذ كومون (Cumont) بلفته نظر العلم البلجيكي الى اهمية اطلال افامية ؛ وما كان للجنة « الاعتماد الوطني للابحاث العلمية » من غيرة فعّالة على تنفيذ هذه الفكرة[1] . ولا نطيل في ما ولي ذلك من الحفريات المتتابعة ، في السنوات ١٩٣٠ ، و١٩٣١ ، و١٩٣٢ ، و١٩٣٤ ، ١٩٣٥ ، مدة سبعة اسابيع من خريف كل سنة . واني اعرض عليكم اليوم نتائج ما اكتشفناه في هذه السنوات الخمس .

اما تاريخ افامية في العصور السحيقة ، فنستند فيه الى معلومات قليلة ، بل الى اشارات وردت عرضاً في آثار القدماء ، نعرف منها ان اسم المدينة الاقدم كان « فَرْناكه » . ثم دُعيت « پيلا » على عهد المقدونيين . حتى كبّرها وجمّلها سلوقوس نيقاطور ، وسمّاها « افامية » ، باسم امرأته . وجعل فيها مستودعاً

---

*) ملخّص محاضرة من محاضرات « معهد الآداب الشرقية » ، في فرع « تاريخ سورية وفنيقية وآثارها »

١) راجع : فؤاد افرام البستاني : مدينة افامية واهمية اطلالها (المشرق ٢٩ [١٩٣١] ١٠-١٨) ، وراطلب ايضاً المشرق ٣٠ [١٩٣٢] ٧٠ ؛ ٣١ [١٩٣٣] ٧٢

٢) راجع ، في ذلك ، المشرق ٢٩ [١٩٣١] ١٢-١٤

للفيلة والخيول والمؤن والذخائر . وقد قال اسطرابون انه كان لسلوقوس فيها ٣٠٠ جواد من كرام الفحول و٣٠,٠٠٠ فرس انثى .

ويأتي العصر الروماني ، فلا نسمع لها ذكرًا الا ما جاء عرضاً ، كما في قول شيشرون ذاكرًا سيسيليوس باسوس وما قاساه من الحصار في افامية .

اما في صدر النصرانية فكانت المدينة لا تزال على اهميتها وازدهارها ، وقد اصبحت مركز اسقفية . حتى كان القرن السادس ، وقد اشتدت الحروب في اواسطه بين يوستنيانوس قيصر وكسرى الثاني ، فدخلها هذا سنة ٥١٠ ، واخربها .

وفي السنة ٦٣٨ ، دخلها ابو عبيدة صلحاً على الجزية والخراج . ثم اخذت تتضاءل حتى كان القرن الثاني عشر ، فحدثت فيه زلزلة قوية سنة ١١٢٥ ، فقوّضت ما بقي فيها من البنايات . وهكذا دخلت هذه المدينة الزاهرة قديماً على عهد اليونان والرومان ، في ظلّ النسيان نحو ثمانية قرون . حتى قُيّض لنا ان نكشف الستار عن بعض ما كان فيها . فنزورها اليوم ، زيارة سريعة ، واقفين على اهم ما ظهر لنا من آثارها الجليلة .

ولا بدّ من ان نستعين اولًا برسم جوّي يُظهر لنا تخطيط هذه المدينة ، فتلفت نظرنا نقطة بارزة تمثل تلّ المدينة القديم وقد كانت عليه قلعتها في العصور السحيقة ، فتدفعنا الرغبة الى اجراء الحفريات فيه . ولكنّ الظروف تحول بيننا وبين تحقيق هذه الرغبة . ذاك انّ على هذا التلّ تربة حديثة ، هي تربة قلعة المضيق ، قامت على انقاض قلعة المدينة الاصلية واستخدمت حجارتها . واذًا فليس لنا الّا الانصراف عن هذا الموقع المهمّ . فانصرفنا الى منبسط شرقي التلّ ، قامت عليه المدينة في العصر اليوناني ، واحاطت بها اسوار فسيحة درسنا آثارها الباقية — وهي ، في بنائها الحالي ، من العهد العربي ، الّا انها قامت على آساس الاسوار القديمة — فدلّتنا على ان محيطها كان يتجاوز ستة كيلومترات ، وفيه ٢٩ برجاً .

ولا يزال شيء من آثار الاسوار العربية في الجنوب الغربي من التلّ تدلّ على استناد بناني ذاك العصر الى القناطر الضخمة في دعم الصروح والبروج .

وهناك في جنوبي الموقع خان كبير على شيء من الاهمية ، لانه مبني بما استُلّ من حجارة المدينة القديمة . وفي الجنوب الشرقي بقايا مرسح فسيح ذي متدرّج كان الشاهدون فيه ينظرون جهة القلعة . ولم يبقَ شيء يُذكر من هذا المرسح لان حجارته نُقلت ، كما نُقل غيرها ، الى بنايات احدث عهداً . على ان ما ابرزناه من حفريّات سعت الانقاض دلّتنا على وجود الدرج ، واظهرت لنا بعض الزخارف ، كما انها اطلعتنا على دهليز تحت المُسَرَّح عُقد سقفه بالحجارة .

وقد امكننا ، على اثر حفريّات سنة ١٩٣٢ ، ان نضع تصميماً للمدينة بكاملها مقدّرين مساحتها بـ ٢٥٠ هكتاراً (الرسم ١) ، يشقّ هذه المساحة من الشمال الى الجنوب شارع عظيم يسير مستقيماً من الباب الشمالي على طول نحو كيلومترين . الّا ان آثاره تختفي ، على قرب مائتي متر تقريباً من الباب الجنوبي . اما عرض الشارع فيبلغ ٢٣ متراً . وقد اكتنفته عن الجانبين اعمدة ضخمة تسند اروقة تنوّعت زخارفها ، واتسع عرضها الى سبعة امتار . وابتعد العمود عن الثاني نحو ثلاثة امتار ، فكان على جانبي ذلك الشارع نحو ١٢٠٠ عمود يبلغ ارتفاعها عشرة امتار . وكانت قواعد الاعمدة مطمورة بعضها على عمق ٣ امتار ، واكثرها على عمق ٧,٥٠ امتار . وقد حُفرت الخنادق الواسعة حتى كُشف عنها (الرسم ٢) .

وكانت تتفرّع ، عن هذا الشارع الاعظم ، شوارع ثنوية تنفصل على زوايا مستقيمة من الشرق الى الغرب ، ويقطعها شوارع ثنوية تسير من الشمال الى الجنوب موازية للشارع الاعظم . وقد اصبح من المقرّر ان هذا التصميم في بناء المدن ، بما فيه من شوارع متوازية متقاطعة ، مشترك بين المدن السورية القديمة جميعها . ويرقى به بعض العلماء الى العهد اليوناني . فاذا ثبت هذا الفرض ، نتج ان الرومان اكتفوا بالتوسّع بذلك التصميم السابق .

ولا يخفى انه لم يكن ممكناً ان نحفر عن الاعمدة ، على طول الشارع الاعظم ، وهو عمل يكلّف ما يفوق طاقتنا ، فاكتفينا بسبر زوايا الشوارع والمنعطفات ، وما رأيناه جديراً بالدرس من آثار الابنية العامة ، والمنازل المهيّئة ، اعتباراً من الباب الشمالي ، وحوله سور حسن البناء لا يزال محفوظاً في بعض

الرسم ١ – مخطط افامية ، وهو محفوظ في متحف بروسل . وتظهر في اعلاه المدينة الرومانية التي تبلغ مساحتها ٢٥٠ هكتارًا .
وفي اسفل الرسم ، على تلّ سنديد مشرف على سهل النامي ، يظهر مخطّط القلعة ، وقد قامت عليه القرية الحاضرة .

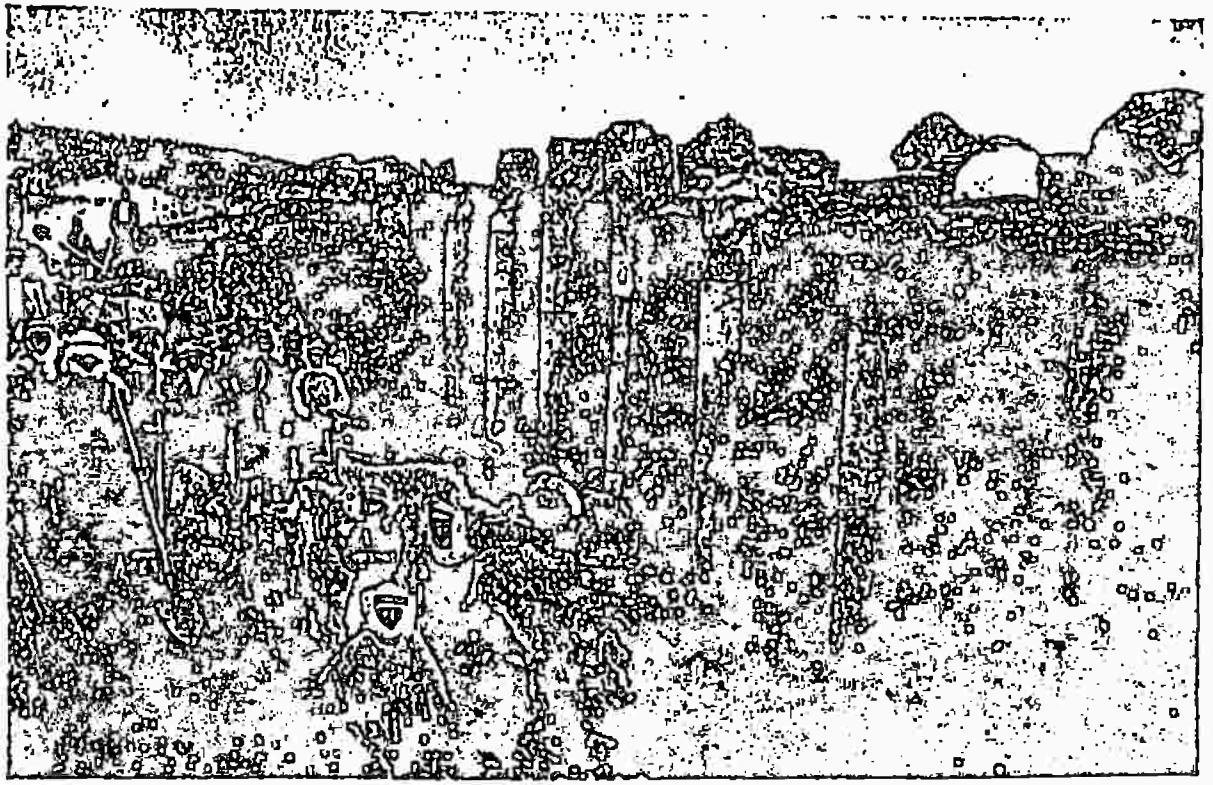

الرسم ٢ – منظر بعض الاعمدة المطمورة

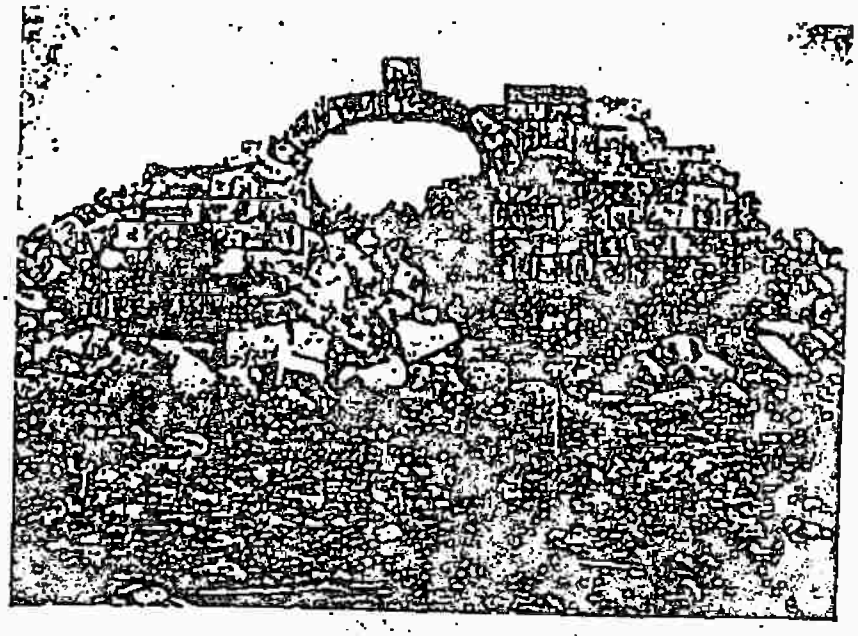

الرسم ٣ – اطلال الباب الشمالي

الرسم ٤ – الاعمدة المتبقية الاصلاع

الرسم ٥ – مشهد لاروما الأوبية المحيطة بالشارع الأكبر عن جانبيه ، وقد أعيد بناؤها في متحف بروسل

اجزائه الى علوّ ثمانية او عشرة امتار . اما الباب الشمالي نفسه فلا يزال ظاهراً على شكل طرأ عليه شيء من التحوير في العصور المتأخرة ، وكان في بنائه الروماني يتألف من قنطرة شاهقة ، لا تزال قائمة حتى اليوم (الرسم ٣) تستند الى ركنين مربعين يزينها عمودان داخليان من النوع الكورنثي . وقد رُمّم الباب في العصر البيزنطي . فاحتفظ المرممون بالقنطرة ، الا انهم تراجعوا ، في اساس ركنيها نحو ثلاثة امتار عن الأس الروماني . وقد استخدموا في ذلك الحجارة الرومانية نفسها . وولي هذا العهد ترميمات مختلفة استخدمت فيها كلها الحجارة الرومانية ولم يزد من زخارف العصور المتأخرة الا عمودين ضيقي الصنعة .

اذا تجاوزنا هذا الباب الشمالي ، بدت لنا آثار رواق متهدم بكامله ، وقد بقيت حجارته على وجه الارض ، فوقفنا عليها دون صعوبة . وكنا نضطر ، في الوقوف على غيرها من العصر نفسه ، الى النزول بالحفر الى عدة امتار (راجع الرسم ٢) . ولا غرابة في هذا الاختلاف في مستوى الارض . فان عمل السنين في نقل التراب ، وما تعاقب على الموقع الواحد من البنايات المتتابعة ، وقد كثر فيها استعمال الحجارة القديمة ونقلها من مستوى الى مستوى ، كل ذلك ادّى الى هذا الاختلاف ، حتى اننا لنجد آثاراً مسيحية على ستة او سبعة امتار تحت المستوى الحالي ، بينما نجد بعض الآثار اليونانية على ظاهر الارض .

بيد ان ما لاحظناه خاصةً في الاروقة المحفوظة آثارها طول الشارع الاعظم انما هو الترتيب التامّ في الابواب والنوافذ والقناطر ، مما يدلّ على اهتمام بمظهر الوحدة في ذاك التصميم ، وفي طريقة القيام به . وكانت الاعمدة المتتابعة ، تتفرج على مسافات متباعدة ، امام صرح كبير تطلّ واجهته على الشارع الاعظم ، كما انها كانت تنفرج فتفسح المكان للدخول في شارع جديد ، فتؤلف ساحة في المفرق تكتنفها القناطر العالية الرشيقة . وقد يكون امام هذه القناطر اعمدة تؤلف انصافاً تذكارية او تمجيدية عريضة القواعد مزخرفتها بالنقوش البارزة احياناً . وفي غيرها ، كانت الاعمدة تظهر مفتولة الاضلاع (الرسم ٤) على طريقة غاية في الاتقان . ومما يجدر بالذكر ان مساند الاعمدة لم تُقطع في حجارة مستقلة ، بل قد حُفرت في قطعة العمود نفسها . وهناك زخارف متنوعة في

تيجان الاعمدة والاعتاب اكثرها رؤوس للبدوز ، وبعض التمثيلات الحجرية المتعلقة بالاله باخوس . على ان الرقم الكتابية قليلة جداً ، منها رقيم باسم لوكيوس بن غايوس يوليوس اغريبا يشير الى ان سلفاءه نالوا رتبة شرف من الامبراطور اغسطوس. ومنها رقيمان ، على بعض الاعمدة ، يذكران الامبراطور مرقس اوريليوس ، والامبراطور لوسيوس ڤيروس . واذاً فان رواق الاعمدة كان لا يزال قائماً في منتصف القرن الثاني ، وقد ملك لوسيوس ڤيروس من السنة ١٦١ الى السنة ١٦٩ م.

ومما يجب ذكره ايضاً الساحة العمومية الممتدة على طول ١٥٠ متراً ، وما يزينها من اروقة تستند ، في الجهة الشمالية ، الى اعمدة تختلف عن سائر الاعمدة ، فيبلغ قطرها ١٣٠ سنتيمتراً . وهذه الاعمدة وقعت ، بعد انحطاط المدينة ، على ما تراكم من البقايا. وكان وقوعها كلها نحو الوسط ، دالةً بذلك على ان سبب هذا الوقوع هزّة ارضية مالت بها الى جهة واحدة ، وظلت في هيأتها حتى اليوم.

وقد بدا لنا ، منذ السنة ١٩٣١ ، بعد ان كشفنا القسم الاكبر من الشارع الاعظم ، ان نحقق هذا القسم من المدينة ، فنعيد تمثيله ، كما كان ، ونعرضه على اهل عاصمتنا بروسل ، بمناسبة المعرض العام . فاستندنا الاستناد الدقيق الى نتائج الحفريات ، وقام معاوني ، المهندس لاكوست ، بصنع القوالب من الجصّ بادئاً بها في افامية نفسها . ثم اتمها وعرضها في بروسل ، على طول ٣٠ متراً ، وفي الرسم ٥ يبدو قسم منها .

***

اشرنا ، في ما مضى ، الى تقلب صروف الدهر على هذه المدينة ، والى ما كان من تتابع البنايات في اثنائها بعضها فوق البعض الآخر . فكان لا بدّ من ردم القسم الكبير منها ، ونقل الاعمدة البنائية من مكان الى مكان . ولا يزال امامنا شاهد مقنع في قلعة المضيق التي بُنيت كلها بحجارة المدينة القديمة. ولعلّ هذا هو السبب في خلوّ اطلالها من آثار الفنّ الدقيقة ، ومرافق الصناعة حتى العادية منها . فاننا لم نقف على شيء من ذلك ، كما اننا لم نقف على شيء

الرسم ٦ – تمثال من العهد اليوناني يمثل سيدة جالسة ، وهو محفوظ في متحف دمشق

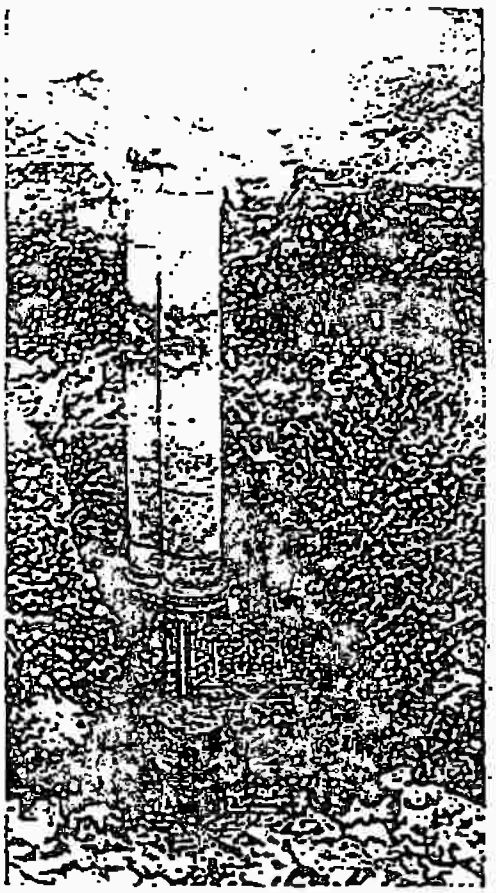

الرسم ٧ – منظر لقسم من الفسيفساء التي كانت تغطي ارض الشارع الاكبر

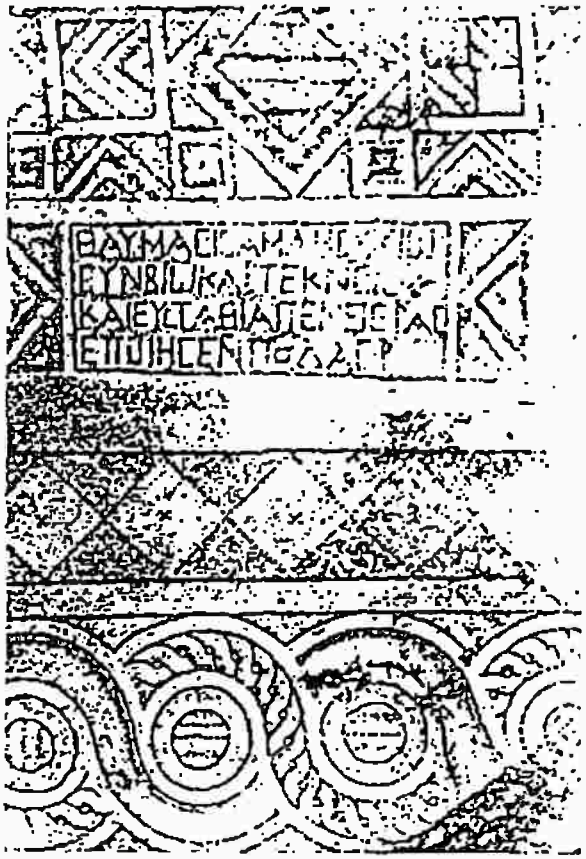

الرسم ٨ – قسم من الفسيفساء المغطية ارض الكنيس اليهودي . والكتابة تشير الى ان احد السكان ، المدعو توماديس ، دفع من جيبه ثمن مائة متر مربع من الفسيفساء.

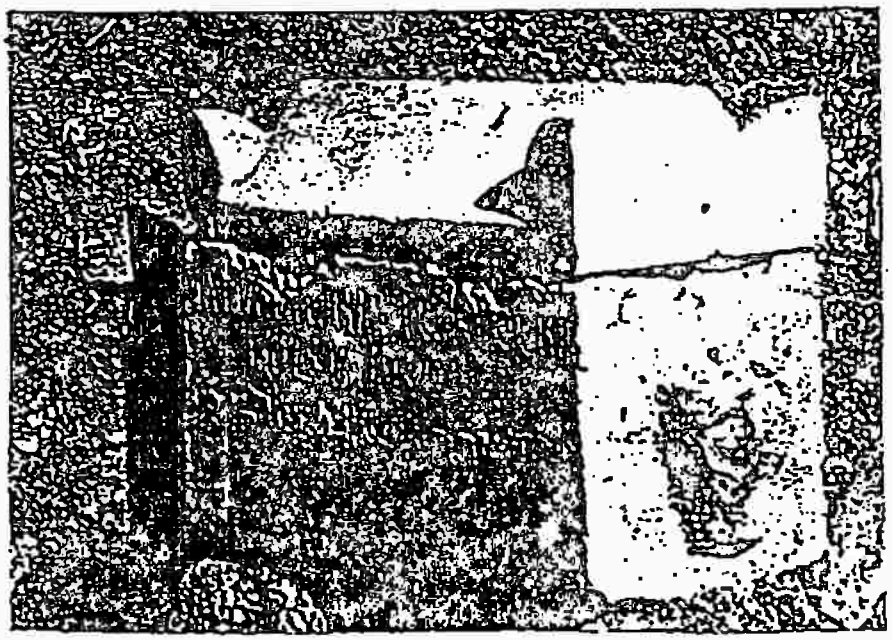

الرسم ٩ – بيت للذخائر وجد في اطلال احدى الكنائس ، وفيه ذخائر القديسين تزما ودميانوس

من الحلي، والحجارة الكريمة، والمصوغات الثمينة . وجل ما استخرجناه من آثار الفن بعض التماثيل البارزة المتعلقة بالعبادات الحربية، عرفنا بينها تمثالاً لباخوس نفسه، وقد افسدته الايام، الا انه ظلّ معروفاً . وهو مرتدٍ ثياباً شرقية . وهناك تمثال لليكورغوس، وقد حُكم عليه بان يموت بين دوالي العنب، فاحاطت بجسمه، وقيدت اعضاءه . وهي كل ما وجدناه من الآثار الدالة على عبادات الاقدمين في افامية . وقد يكون النصارى اتلفوا اكثرها عندما بنوا كنائسهم على انقاض الهياكل الوثنية.

وفوق ما تقدم ذكره، فقد وجدنا اثناء الحفريات بعض الآثار النحتية، ولكنها جميعاً من آثار الزخرف، واشهرها تمثال ضخم لجبار راكع، كأنه يحمل على يديه القسم الاعلى من البناء؛ وفي هذا يختلف عمّا نعهده في هذا النوع من الزخرف، اذ يُمثل الانسان حاملاً حمله على كتفيه، لا على يديه . وقد خال بعضهم وجودَ أثر لفنّ الشرق الاقصى في هذا التمثال، ولاسيما في جلسته المذكورة . والتمثال منحوت نحتاً بارزاً في صلدٍ من الحجر مربّع يبلغ ضلعه ١٤٠ سنتيمتراً. ورأسه واعلى صدره ويداه على غاية ما يمكن من الجلاء، حتى يمكن القول ان الرأس اتمّ ما اكتشف من نوعه من حيث تمثيل الواقع، والمبالغة في اظهار القسمات.

وقد اكتشفنا كذلك، في الشارع الاعظم، ناووساً سورياً عليه نقوش من الجهتين تمثل آلهة الحب والانتصار . على ان وجود هذا الناووس مطروحاً في الشارع يدلّ على ان مقبرة المدينة القديمة قد نُهبت، ونُقل هذا الناووس فاستُعمل حوضاً للمياه.

ومن مكتشفات السنة الفائتة عدد كبير من التماثيل الصغيرة أدخلت في احد الجدران مع موادّ البناء، منها ما يُمثل آلهة الحب والانتصار وبينها تمثال بسيكه جالسةً (الرسم ٦)، ومنها ما يمثل اشخاصاً ملتحفين بالاردية . وشد ما كان سرورنا عندما وقفنا على قطع عديدة من الفسيفساء رُصفت بها ارروقة الشارع الاعظم، وكان اجملها قرب الرواق الغربي (الرسم ٧) . اما موضوعاتها فمستوحاة من الحياة الشرقية، وفي مقدمتها مشاهد الصيد . فهناك اسود تعدو

وراء الغزلان ، وهناك كلاب صيد وايائل ، وعدد من البطّ والاوزّ والجباريات، وكلاب سلوقية راكضة وراء الطيور المختلفة . كل ذلك يظهر في مسارح مملوءة بالازهار المشتبكة مما يقرب من منسوجات السجاد الشرقي . والجدير بالذكر ان هذه الحيوانات متجهة الى النواحي المختلفة ، حتى ان السائرين في تلك الاروقة ، يرون ، كيفما ساروا ، بعض المشاهد متجهة نحوهم . والى جنب مشاهد الصيد هذه ، مناظر اتخذت من الحياة العادية ، فمثل بعضها قوافل من الجمال متتابعة السير ، وقد عُلقت الاجراس الصغيرة في اعناقها ؛ ومثل بعضها ناعورة دقيقة الصنع ، دائرة حول مرتفع من الحجارة يُصعد اليه بدرج ، كما هي الحال في نواعير حماة اليوم . وبقربها رجل تظهر عليه امارات التعب كانه ينقب الارض او يسقيها .

وفي السنة الحاضرة زادت هذه المجموعة من الفسيفساء بقطعة جديدة مثلت سبعة من الصيادين بعضهم على الخيل وبعضهم رجّالة ، يعدون وراء ارنب برّية وفهد .

اما زمن صنع هذه الفسيفساء فدلنا عليه دليل واحد وهو ان احدى القطع تحمل تاريخ السنة ٥٣٩ للمسيح .

ومن المكتشفات الحديثة كنيس يهودي بُني على انقاض هيكل قديم . وفيه قطعة فسيفساء تحمل رقماً يشير الى ان احد السكان المدعو توماسيس دفع من ماله الخاصّ ثمن مائة متر مربع من الفسيفساء . (الرسم ٨)

ومنها كنيسة مسيحية كبيرة ، مربعة التصميم ، بُنيت على انقاض هيكل قديم كذلك ، محتفظةً ببعض اركانه . وقد وجدنا تحت مذبحها ، على عمق ١٥٠ سنتيمترًا ، قطعة من الفسيفساء ترقى ، دون شك ، الى العهد الوثني . ووجدنا كذلك عددًا من الآنية الحجرية تشبه النواويس الصغيرة ، الا ان في احد جوانبها مصرفاً للسوائل . فتردّدنا طويلًا في معرفة الغاية منها ، وملنا الى القول بانها احواض صغيرة لحفظ الماء . حتى اكتشفنا ، في السنة الثالثة ، واحدًا جديدًا من هذه الآنية ، وعليه الرقم التالي : «هنا ذخائر القديسين تزما ودميانوس وغيرهما من القديسين .» فتحققنا ان تلك الآنية بيوت تُحفظ فيها الذخائر

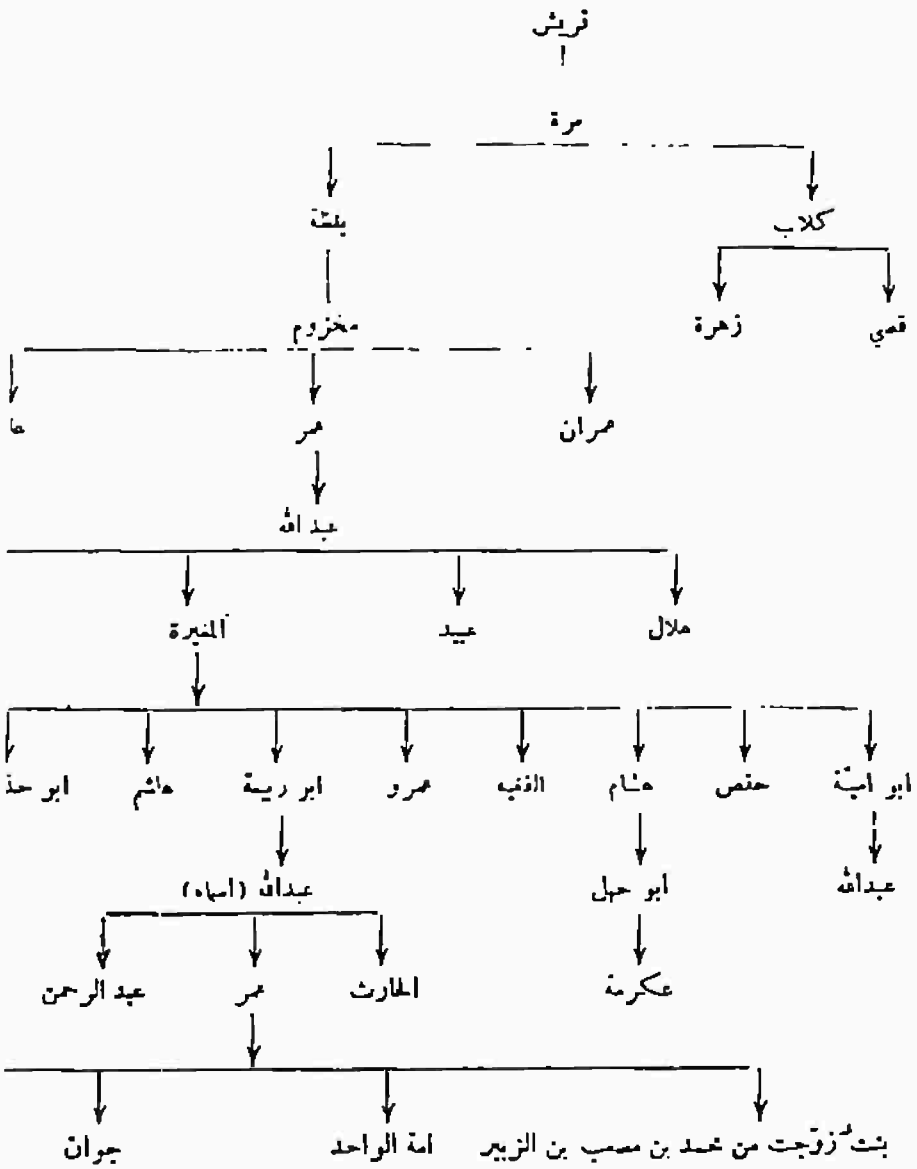

جدول يظهر نسب بني مخزوم في قريش ، دون ان يتصلوا بقصي ، وفيه ذكر لاكثر الرجال والنساء

الرسم ١٠ – الانبوبة الخزفية المغروسة تحت الارض

المذكورة ، وتُستعمل لتحريك بعض السوائل من زيوت وغيرها ، فتمرّ على البقايا المقدسة وتخرج من تلك المصارف التي اشرنا اليها. (الرسم ٩)

بقي ان نشير الى آثار لا تقلّ اهمية عما تقدّم ، كما انها لا تقل دلالة على تقدّم تلك المدينة في العمران ، وعلى مقدرة اهليها في الهندسة والصناعة ، الا وهي الاقنية الحجرية التي كانت تتفرّع في ارض المدينة فتوزّع الماء على انحائها المختلفة . لقد جُرّت المياه الى المدينة من نقطة بعيدة في اقنية مرتبة كشفت الحفريات عن بعضها فرأينا قناةً كبيرة رُفعت ، في بعض الاماكن ، على قناطر ضخمة واركان قويّة ، والى جنبها اقنية صغيرة تتفرّع منها او عن غيرها ، حتى وصل عددها في بعض الشوارع الى خمسة اقنية ، وكلها مستديرة تجري فيها المياه منظّمة . وقد بلغ قطر بعضها ٤٠ سنتيمترًا . والعجب فيها ان كلها من الحجر المحفور حتى منعرجاتها وزواياها ، وقد أُحكمت اشدّ احكام . (الرسم ١٠)

***

هذا ملخّص ما وقفنا عليه من آثار افامية في العهدين الروماني والمسيحي . اما العهد اليوناني فلم نتمكن من ان ننسب اليه اثرًا يُذكر . ولعلنا نقف في المستقبل على شيء من ذلك.